اللغة الأدبية المشتركة بإزاء اللهجات العربية بين النحاة المحدثين و أ.د عبد الرحمن الحاج صالح

د.أحمد حاجي
أ.سعاد شرفاوي
جامعة قاصدي مرباح - ورقلة

إن المتتبع للدراسات النقدية الحديثة للنحو العربي القديم يجد أن أهم نقد وُجِّهَ للنحاة العرب القدماء - في عملهم - هو استنباطهم للقواعد النحوية من مستويين مختلفين في اللغة والخلط بينهما، وهما أولا مستوى الفصحى، وهي لغة خاصة بالتعبير الأدبي، وتشمل لغة القرآن الكريم، والشعر العربي.

وثانيا مستوى غير الفصيح، وهي لغة التخاطب اليومي، وقد اختلفت باختلاف اللهجات التي تدخل فيها، و قد اعتبر عبد الرحمن الحاج صالح هذا وهما، وردّهُ بأدلة تاريخية و إحصائية.

ونستعرض في هذا البحث بعض هذه الآراء لنحاة عرب محدثين، و هي مؤكدة لفكرة الخلط هذه، و ما جاء به الحاج صالح من أدلة تاريخية، و إحصائية ليُكذِّبَ بها هذا الاعتقاد الذي وصفه بالوهمي.

النحاة المحدثون وفكرة الخلط بين اللغة الأدبية و اللهجات:

يقول إبراهيم أنيس: «وتلك اللغة الأدبية التي خطب بها الخطباء، وشعر بها الشعراء، ونزل بها القرآن الكريم، لم تكن لغة تخاطب للناس في حياتهم العامة»[1].

وأكدوا أن هذا الخلط بين اللغة الأدبية، واللهجات قد سبب الكثير من الظواهر الغريبة في نحونا العربي القديم.

حيث جاء عند إبراهيم أنيس: «ولو أن الرواة وقفوا في استنباط قواعدهم عند اللغة الأدبية التي جاءتهم موحدة، مُمثّلةً في الأدب الجاهلي، والقرآن الكريم، لَجنّبوا أنفسهم الكثير من المهاترات، والجدل حول ما يجوز، وما لا يجوز، ولكنّهم حاولوا إقحام الصفات الخاصة للهجات العربية، فبدت لنا القواعد اللغوية مضطربة متعددة الوجوه»[2].

واتّهامٌ كهذا وجدناه وُجّه بكثرة من قبل بعض النحاة المحدثين والوصفيين منهم خاصة.

وقول كمال شاهين في هذا الصدد: «لقد كشفت الدراسات اللغوية الحديثة أن قدماء النحاة لم يقوموا بوصف أي لهجة من اللهجات العربية المستخدمة في ذلك الوقت، وإنما قاموا

بـالخلط بـين هـذه اللـهجات، ممـا أدّى إلى اضـطراب القواعـد اللغوية بصـورة تصـل إلى درجـة التناقض، والأهم من ذلك أن الوصف النهائي الذي قدّمه قدماء النحاة لا ينطبق على أي لهجة من اللهجات التي كان يتحدّثها العرب في ذلك الوقت»[3].

أما علي أبو المكارم فيقول: «ثمة ظاهرة واضحة في البحوث اللغوية المأثورة عن العرب،وهي ظاهرة تكشف عن فهم خاص للغة،وتدل على تصوّر محدود لها،تلك الظاهرة هي الخلط بين مستويات الأداء اللغوي، واللهجي دون تفرقة بين ما ينسب إلى لهجة من اللهجات القبلية، وبين ما ينتمي إلى اللغة الفصحى، واعتبار الكل لغة واحدة محدودة الخصائص، متحدة المستوى، وهذا الموقف يعني أن اللغة ليست مستوى واحدا يتميز بخصائصه الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية والدلالية على كل لهجة من اللهجات على حدة، ثم على اللهجات في مجموعها، وإنما هي اللهجات القبلية ذاتها، والذي يكشف هذا التصور مواقف النحاة أنفسهم في عصر الاستشهاد، فقد رحلوا إلى البادية، واعتمدوا السماع عن هؤلاء البداة، وفي سماعهم هذا لم يفرّقوا بين القبيلة والأخرى التي استقر عندهم فصاحتها،ولم يتفطنوا إلى وجود فوارق تركيبية ودلالية بين المستويات اللهجية، ومستوى الفصحى».[4]

وأكد عبد الصبور شاهين: «أن قدماء النحاة قاموا بالخلط بين اللهجات المختلفة إلى درجة أصبح من الصعب علينا تحديد ما إذا كان النحو يقدّم وصفا يتعلق بلهجة معينة، أم أنه لا يتعلق بأي لهجة على الإطلاق، وإنما هي العامل المشترك بين اللهجات»[5].

وفي هذا الشأن قال العبيدي: «إن النحاة وقعوا في إشكال، فهم كثيرا ما يحتجون لقواعدهم التي وضعوا أصولها بلغة أسد، أو تميم، أو طيء أو هذيل، إنهم في مناظرتهم يستشهدون بشعر قبائل، وهم قد وضعوا القياس،والمعيار لأخرى،فرأى أن هذا كله أدى إلى الاختلاط، والقارئ للنحو العربي لا يدري هل يقعد النحاة للهجة خاصة بقبيلة أو قبائل معينة، أو أنهم يقعدون للغة عربية فصحى عامة»[6].

ومن جهة أخرى أشار كمال بشر إلى أن: «تحديد القبائل المأخوذ عنها بعدد معين فيه نوع من تحديد البيئة، وقد أيّدهم في هذا الإجراء، لأنه يتوافق ومبادئ الوصفية، والعلمية، غير أنه رأى أن هذا التحديد واسع، وأرجع ذلك كون القبائل متباعدة جغرافيا، فهي لم تكن متجاورة، بل كانت بعيدة ومترامية الأطراف، ورأى أن الجمع منها كلها دون تمييز يؤدي إلى الخلط، فالأكيد أن اختلافها الجغرافي ينجر عنه اختلاف عاداتها اللغوية، وأضاف أن بعضهم لم يكتف بهذا العدد المحدود من القبائل، بل كانوا يجيزون لأنفسهم الأخذ عن أي أعرابي يقابلهم في الطريق، وهذا السلوك عرف به الكوفيون بوجه خاص، ليؤكد بعدها أنه لا يستبعد أن تكون ظواهر مشهورة في النحو العربي ترجع إلى سبب الخلط هذا كظاهرة الترادف وكثرتها في اللغة العربية، وكالاضطراب الواضح في أوزان الفعل الثلاثي، وصيغه المختلفة»[7].

أما رمضان عبد التواب فقد حمّل هذا الاضطراب من النحاة في شأن اللهجات والخلط بينها، وبين الفصحى وقواعدها في كثير من الأحيان المسؤولية في كثرة الشذوذ في النحو العربي[8].

ويقول أيضا: «اللغة المشتركة، لا تنتمي صفاتها، أو عناصرها إلى بيئة محلية بعينها، فهي ليست لغة قبيلة بعينها، واللغة المشتركة لا تتضمن شيئا من خصائص اللهجات المحلية، إن اللغة المشتركة مزيج من قبائل العرب، تكونت له شخصيته، وكيانه، وأصبح مستقلا عن اللهجات».[9] وكان للأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح موقف من هذه الآراء التي تؤكد اختلاف اللغة الأدبية عن اللهجات، و ردّها بأدلة تاريخية وإحصائية.

أولا: الأدلة التاريخية:

1- شهادة القرآن التاريخية: قدّم الباحث مجموعة من الأدلة، و هي نصوص قرآنية في هذا الموضوع وهي:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم4)

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ ﴾ (النحل103)

وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (يوسف2)

فاستشهد الأستاذ الحاج صالح بهذه النصوص، واعتبرها شهادة تاريخية لا مناص من قبولها، إذ يُقرُّ بها أي باحث مسلم، أو غير مسلم، فهي حقيقة تاريخية، فقد أكد القرآن على أن اللغة العربية هي اللغة التي نزل بها هذا الخطاب، أيضا أن هذه اللغة هي لغة جميع العرب، إذ لم يخصّ لسان قوم من العرب بعينهم، ولا لسان الشعر وحده، فقد وصف بالمبين، وأكد الأستاذ أنه لا يعقل أن يكون مبينا، إلا إذا استعمله العرب في مخاطباتهم[10].

2- ما كان يقصد من كلمة لغة في زمان سيبويه: يقول رمضان عبد التواب: «من بين اصطلاحات اللغويين غير الواضحة تماما مصطلح اللغة، فإنها تعبر في بعض الأحيان عن لهجة قبيلة من القبائل، كما تعبر في أحيان أخرى عن عيوب النطق (اللثغة)»[11].

أما إبراهيم أنيس فيقول: «وقد كان القدماء من علماء العربية يعبرون كما نسميه الآن باللهجة بكلمة اللغة حينا، وباللحن[12] حينا آخر[13]».

وفسّر الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح هذه الشبهة، ما وقع- حسب تصوره- من تأويل المحدثين للفظة لغة عند القدامى بما نسميه في زماننا باللهجة، ورأى أن الأمر ليس كذلك عند العلماء الأولين.

وبتطبيق طريقته في البرهنة، وهي (المقايسة الدلالية)[14]عرض مجموعة نصوص مصدرها كتاب سيبويه: (الهمزة كانت مبتدأة فمحققة في كل لغة)[15]، (وذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز)[16]، (فكل هذا فيه اللغة المطردة، إلا أنا لم نسمعهم قالوا إلا استروح إليه، وأغْلَيَتْ واستحوَذَ)[17]، (وهذه قليلة وأجود اللغتين وأكثرهما أن لا تُلحق حرف المد في الكاف)[18]، (ونظير هيهات وهيهاة في اختلاف اللغتين، قول العرب: استأصل الله عرقاتِهم واستأصل الله عرقاتَهم)[19].

ثم وجد أن لفظة (لغة) في جميع هذه النصوص تدل على كيفية خاصة في استعمال العرب،أو جماعية منهم لعنصر خاص من عناصر العربية: النطق بصوت معين، أو استعمال لصيغه كلمة معينة أو لتركيب معين، ولا يطلقها على لهجة بأكملها أي على لسان خاص بقبيلة أو بإقليم.

وتوصّل بعد ذلك إلى أن في جميع هذه النصوص المقصود من كلمة (لغة) هو طريقة استعمال جميع العرب أو أكثرهم،أو الكثير منهم،أو أفراد قلائل منهم لوحدة من وحدات العربية على اختلاف مستوياتها، ودعّم استنتاجه هذا بما جاء في قول سيبويه، في الألفاظ التي اختلفت فيها العرب أن لها لغتين أو ثلاثا. (ذيت فيها ثلاث لغات)[20]، (وأما معد يكرب ففيه لغات)[21].

فمما سبق لا يمكن – يقول الأستاذ الحاج صالح – أن نقيم كلمة (لهجة) بالمعنى المحدث مكان كلمة (لغة) بحال من الأحوال.

فالمقصود عند سيبويه من كلمة (لغة) لا يشمل لهجة بأكملها، بل عناصر لغوية خاصة.

ثم إن الكيفيات في استعمال العرب لوحدة لغوية معينة قد تكون لهجية،أو غير لهجية، وليست بالضرورة خاصة بإقليم معين،أو قبيلة معينة فقد ينطق بها الكثير، أو القليل من العرب الفصحاء من قبيلة معينة، أو أكثر من قبيلة،أو أيا كانت قبيلتهم، أو إقليمهم، وهذا ما يفسر أن العلماء العرب كثيرا ما يسكتون عن القبيلة، أو الجهة التي تنتمي إليها هذه اللغة أو تلك لوجودها في أكثر من قبيلة كما أنهم لا يغفلون – غالبا- عن ذكر أهل هذه اللغات إذا انفردوا بها.

ورأى الأستاذ الحاج صالح أن لفظة لغة التي هي أعظم معنى من الاستعمال اللهجي، فهي تعبر عن طريقة الاستعمال، أو الأداء غير الخاص بجهة معينة، أو القوم من العرب، فلذلك لا يصح أن نسوي بينها وبين الذي قصده سيبويه، فهي نطق وأداء خاص بوحدة لغوية خاصة، أو طريقة الكلام عموما[22].

3 - وقوع التفاهم وحقيقة اللهجات العربية: إن الدليل الثالث الذي قدّمه الأستاذ الحاج صالح للبرهنة على فكرته هو ما يوجد من تفاهم بين القبائل، برغم هذه المجموعات من الصفات اللغوية الخاصة، والاختلاف لا يعدو أن يكون اختلافا في الأصوات، وصيغ الكلمة، أو مدلولها، وهو محصور جدا.

ويذكّر بما جاء عند الجاحظ من صعوبة الفهم عند الأعرابي إذا وجد لحنا في الكلام[23]: «والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ... يعني إفهامك حاجته على مجاري كلام العرب الفصحاء وأصحاب هذه اللغة لا يفهمون قول القائل منا: (مكره أخاك لا بطل)، و(إذا عز أخاك فهن)، ومن ثم لم يفهم قولهم: (ذهبت إلى أبو زيد)، و(رأيت أبي عمرو)، ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجوه، ولم يسمعوا منه، لأن ذلك يدلّ على طول إقامته في مكان فسدت فيه لغته»[24].

وتعجّب الأستاذ الحاج صالح أن لا يتفطن الجاحظ إلى وجود لغة تخاطب مختلفة عن لغة الشعر، ولغة القرآن، عند ذكره لهذه الملح بين الفصحاء.

وأضاف قول ابن جني من موقف العربي الفصيح إزاء التنوعات التي ليست من لغته[25]: «وذلك أن الأعرابي الفصيح إذا عُدل به عن لغته إلى أخرى سقيمة عافها، ولم يعبأ بها، ويأتي بأمثلة كلها مفردات أو صيغ لها.... إلا أنهم أشد استنكاراً لزيغ الإعراب منهم لخلاف اللغة، لأن بعضهم قد ينطق بحضرته بكثير من اللغات فلا ينكرها إلا أهل الجفاء وقوة الفصاحة، يتناكرون خلاف اللغة تناكرهم خلاف الإعراب»[26].

وقال الأستاذ الحاج صالح: إن العرب لم يغفلوا عن ما يمنع التفاهم وسكتوا عنه، حيث روى أحد زملاء سيبويه، وهو ابن سلام الجمحي عن أبي عمرو بن العلاء، أنه قال[27]:« ما لسان حمير، وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا»[28].

وقال ابن جني[29]: «وبعد فلسنا نشك في بعد لغة حمير وتحولها عن لغة ابني نزار[30]، فقد يمكن أن يقع شيء من تلك اللغة في لغتهم فيساء الظن فيه بمن سمع منه، وإنما هو منقول من تلك اللغة»[31].

وقال أيضاً: « قال "أبو علي": ما نقول في حوربت فخضنا معاً فيه فلم نحل بطائل منه، فقال: هو من لغة اليمن، ومخالف للغة ابني نزار فلا يذكر أن يجيء مخالفاً لأمثلتهم»[32].

4- قول سيبويه وزملائه ومثل ذلك في القرآن الكريم أو الشعر أو الكلام، والبرهان الرابع الذي قدّمه الحاج صالح هو ما يقوله سيبويه باستمرار في كتابه،وهو بأن يمثل لكلامه في التأكيد على مختلف القضايا التي يثبتها،فرأى الأستاذ الحاج صالح أن كتاب سيبويه شاهد على ما يجده سيبويه من سهولة في إيجاد التناسب في الأبنية،فلا يمكن أن يكون هذا تخليطا بين لغة الشعر ولغة القرآن، واللهجات[33].

5- اللغات في الشعر العربي وفي القراءات: إن القراءات القرآنية هي المرآة الصادقة التي تعكس الواقع اللغوي الذي كان سائداً في شبه الجزيرة العربية، وهي أصل المصادر التي يمكن الرجوع إليها في تسجيل هذا الواقع.[34]

واستدل الأستاذ الحاج صالح على وحدة اللغة الأدبية واللهجات، بوجود الخاصيات اللهجية بكثرة في القرآن والقراءات، والشعر أيضاً للدلالة على أن لغة التخاطب، ولغة القرآن شيء واحد ،وأكد أن الأسلوب[35] الذي نزل به القرآن غير أسلوب اللغة العادية، ولكن الأسلوب ليس هو اللغة، فإن القرآن خاطب العرب بلغتهم، لكن بأسلوب معجز انفرد به سبحانه وتعالى.

وقال: إن هذه اللغة الموحدة التي يمتاز بها القرآن، والشعر، إنما هي لغة التخاطب التي يفهمها جميع العرب من حيث هي نظام نحوي صريح، مع ما يرافق ذلك من مفردات، فهي نفسها موحدة، وأكبر دليل على ذلك هو قلّة وجود الاختلافات اللهجية بين قبيلة وأخرى في ذلك الزمان من جهة، ووجود هذه الاختلافات هي برمتها في الشعر، وأكثرها في القراءات من جهة أخرى[36].

أما قول إبراهيم أنيس: «رويت لنا الآثار القديمة في لغة موحدة لا تشتمل على خصائص من تلك التي وردت عن اللهجات العربية القديمة»[37].

فيقول الأستاذ الحاج صالح إن قوله غير صحيح ويمكن تبينه بالرجوع إلى شواهد النحاة.

إن العلماء القدامى قد ألفوا الكثير من الكتب عن اللغات في قراءات القرآن الكريم ومثّل لذلك بما جاء في معاني القرآن للأخفش ومنها ما يلي[38]:

قال: «وقوله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة، 3) ففيها لغتان ومنهم من يقولها بالوقف إذا وصل ومنهم من يلحق فيها الواو وكذلك هو في كل موضع من القرآن والكلام»[39].

وقال:« ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ (طه 63) خفيفة في معنى ثقيلة، وهي لغة لقوم يرفعون ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى (ما) ونقرأها ثقيلة وهي لغة لبني الحارث[40] بن كعب[41] ».

6- التخاطب بالفصحى قديماً وأقوال المستشرقين:

أ- توهم المستشرقين وأتباعهم من العرب: يقول الأستاذ الحاج صالح إن تخليطاً وقع فيه المعاصرون وهو إسقاطهم الوضع اللغوي العربي الحديث على الوضع اللغوي العربي قبل اختفاء الفصاحة ومثلها بمخطط:

$$\frac{\text{اللغة المشتركة الثقافية الحالية}}{\text{لغة التخاطب الحالية العامية}} = \frac{\text{اللغة الفصحى قديماً}}{\text{لغة التخاطب قديماً}} \Longleftarrow \frac{\text{لغة مشتركة أدبية}}{\text{اللهجات القديمة}}$$

فالفصحى القديمة لغة مشتركة أدبية عندهم كما أن الفصحى الحديثة لغة مشتركة ثقافية، واللهجات القديمة كانت هي وحدها لغة التخاطب عندهم كما أن اللهجات الحديثة هي الآن وحدها لغة التخاطب.

واعتبر هذا الحمل سفسطة لأنه تسوية تعسفية بين زمنين أو وضعيتين لغويتين تنتميان إلى زمنين مختلفين.

وهناك زعم آخر رآه وهو احتقار اللغويين العرب للهجات، وميلهم إلى توحيد العربية تعسفاً وتمسكاً بصفائها.

وهذا الأصل قد نص عليه في أواسط القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري)، وهو الاعتقاد بوجود معيار لغوي، وهو صورة من العربية تمتاز بالصفاء[42]، والكمال، ويقابلها خليط من اللهجات، وما هذه اللهجات عندهم إلا ما فسد من هذه اللغة المثالية.

وأبطل الأستاذ الحاج صالح الزعم القائل بأن العلماء العرب كانوا يحتقرون اللهجات ويعتبرونها لغات فاسدة تمسكاً بفكرة الصفاء، وقدّم لهذا البطلان حججا وهي:

أن لغة التخاطب في زمن الرسول ﷺ لم تكن مخالفة للغة المشتركة مثل العامية في زماننا، ولا فرق بين لغة وأخرى عند العرب، إلا في عدم اطرادها، وشيوع استعمالها، واشتهارها.

الحجة الثانية سبق الإشارة إليها، وهي أن كل لغة لها ما يقابلها في الشواهد من الشعر أو القراءات.

إن لغة التخاطب في جميع اللغات لها خصوصيتها من حيث الخفة في الأداء ولذلك نجدها تتميز بالاختزال والاختصار، فالكلام عفوي ولا يُعقل أن يتكلّم الناس في حالتهم العادية كما يخطب الخطيب أو يُرتّل القرآن.[43]

ب- معنى اللغة الرديئة عند علماء اللغة العربية: يقول عبده الراجحي أن سيبويه يطلق على اللهجات أحكاماً لا نعرف تماماً الأساس الذي تبنى عليه، فهو يصف اللهجة مثلاً بأنها (لغة رديئة)[44].

وقال رمضان عبد التواب: «...فتحدثوا عن الفصيح، والأفصح، والأقل فصاحة، والرديء، والمذموم... وكانت المعايير التي استندوا إليها في ذلك غامضة».[45]

وأشار الأستاذ الحاج صالح إلى أن أكثر المحدثين لم ينتبه إلى أن كل ما ذكروه كلغات (مذمومة)،ما عدا الثلاث التي تطرّق إليها سيبويه ويضاف العنعنة فهي إما آفات تصيب الأداء مثل الرتة والغمغمة وإما لكنة وعجمية خاصة بالعرب المجاورين لغيرهم من العجم، أو ذوي لهجة بعيدة عن الفصحى كالحميرية القديمة، وذلك مثل اللخلخانية والطمطمانية والتضجع[46].

وعلق على قول ابن فارس[47]: «أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة»[48].بأنه يريد من قوله هذا الخلوص من هذه العيوب.

وضرب لنا أمثلة من الكتاب[49]: «من قال: مررت بصحيفة طين خاتمُها قال: هذا راقودٌ خلٌ وهذه صُفّةٌ خَزٌّ، وهذا قبيح أجرى على غير وجهه، ولكنه حسن أن يبنى على المبتدإ ويكون حالا، فالحال قولك: هذه جبتك خزاً»[50].

وقال أيضا: «تقول: مررت بعبد الله خيرٌ منه أبوه... ومن أجرى هذا على الأول... فيقول: مررت بعبد الله خيراً منه أبوه، وهي لغة رديئة، وليست بمنزلة العمل نحو ضارب و ملازم، وما ضارعه نحو حسَنَ الوجه».[51]

وقدم الأستاذ الحاج صالح تفسيراً للرديء من الكلام، ومن اللغات عند سيبويه، ورأى أنه ما أجري على غير وجهه فلكل عنصر لغوي وجهه الذي يجري عليه، وهذا هو القياس عندهم.

وقد يخرج عن بابه ويكون مع ذلك مستعملاً عند فصحاء العرب، فإذا اطرد استعماله، وكثر فهو من الشواذ التي لا يجوز استعمال غيرها مثل استحوذ، وإن قل وشذ استعماله فهذا الذي يوصف بالرديء أو القبيح، وليس هو بلحن، فأكد أن سيبويه وشيوخه، وتلاميذه لم يحتقروا لغات العرب، وأعتبر أن ما اعتمدوه هو مقياس علمي، وهو الاعتماد على كثرة الاستعمال وشيوعه جغرافيا

وبرّأ النحاة القدامى من الاتهامات التي لحقتهم بشأن إهمالهم للكثير من اللغات، ورد هذا الزعم بوجود العدد الكبير من القبائل، والأماكن التي ذكرها العلماء عند عزوهم للغات، وهي تغطي في مجملها أكثر القبائل العربية، ورفض الأستاذ الاعتماد على نص الفارابي وحده، والسكوت عن القبائل التي ذكرها سيبويه مثلاً[52].

حيث قال محمد عيد: «فقد رفضت لهجات قبائل عربية عديدة، واكتفوا بدراسة لهجات قبائل تسكن وسط الجزيرة العربية، وعملية الرفض هذه ظهرت مع بداية الدرس اللغوي العربي، ونص الفارابي نصًّا صريحاً بالقبائل التي اتكل عليها في عملية التقعيد النحوي»[53].

وفي شأن تفضيل النحاة للغة أهل الحجاز أو قريش الذي جاء به بعض النحاة المحدثين.

فهذا عبد الله عبد الناصر جبري في كتابه (لهجات العرب في القرآن الكريم) يقول: «فسيبويه غالباً ما يرجح لغة أهل الحجاز إذا تعارضت مع لغة أخرى، ويصفها بأنها اللغة العربية القديمة الجيدة[54]. وفي مواضع أخرى يصفها بالحجازية الجيدة[55] أو اللغة الأولى القدمى[56].

وبذلك تكون لغة الحجاز مقدمة في الفصاحة على غيرها عند سيبويه و...إن لغة أهل الحجاز هي اللغة العربية القديمة الجيدة الفصيحة بشهادة كبار أهل اللغة، والنحو»[57].

وقد كان للأستاذ الحاج صالح رد على مثل هذا الزعم المؤيد بقول سيبويه بأن اللغة "الحجازية هي اللغة الأولى القدمى" وقال الأستاذ: إنه هنا لا يقصد اللهجة الحجازية بأجمعها، بل بناء فعال على الكسر اسما علما لمؤنث عوض إعرابها، وبالتالي الإمالة في فعال إذا كانت لامه راء، وتبعتهم في ذلك تميم، وقوله أيضا: "وهي اللغة العربية القديمة الجيدة" فيقصد الإظهار في مثل (اردد) ولا يوجد في الكتاب أي تفضيل للهجة على أخرى إطلاقا.

وختم كلامه عن اعتداد العلماء القدامى باللغات بذكر نص لابن جني[58]:

«اعلم أن سعة القياس تبيح لهم ذلك، ولا تحظره عليهم، ألا ترى أن لغة التميميين في ترك إعمال ما يقبلها القياس ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك لأن لكل واحد من القوميين ضربا من القياس يأخذ به، ويخلد إلى مثله، وليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها... هذا حكم اللغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين... فأما أن تقل إحداهما جدا فإنك تأخذ بأوسعهما رواية وأقواها قياسا ألا تراك لا تقول... أكرمتكش... قياسا على لغة من قال: بكش... فإذا كان الأمر في اللغة المعول عليها هكذا وعلى هذا يجب أن يقل استعمالها، وأن يتخير ما هو أقوى، وأشيع إلا أن إنسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب لكنه كأن يكون مخطئا لأجود اللغتين».[59]

ثانيا: الأدلة الإحصائية:

فقد دعّم أستاذنا أدلته التي ذكرناها بأدلة بلغة الأرقام، وهي أدلة دقيقة استندت إلى المنهج الإحصائي وشملت ما يلي:

1- اللغات في القرآن الكريم: انطلق من حديث رسول الله ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا منه ما تيسر".

واعتبره دليلا صريحا على وجود لغات من لغات العرب في الكتاب العزيز، وتحقق من ضآلة عدد اللغات في النص القرآني، استنادا على دراسة موجودة في كتاب عنوانه "رسالة فيما ورد في القرآن من لغات القبائل" حيث تطرق هذا الكتاب إلى الجانب الإفرادي للغات في القرآن الكريم.

فقد كانت نسبة اللغات من مجموع مفردات القرآن الكريم أقل من 2 في المائة من المفردات اللهجية التي تنتمي إلى 35 قبيلة، أو إقليم.

وما هو جدير بالذكر أن لقريش المرتبة الأولى، بنسبة 27.96% فهي أكثر القبائل لغات في القرآن الكريم، وهذا يؤكد ما جاء به العلماء من أن لغة قريش متغلبة على غيرها من حيث وجودها في القرآن الكريم، وهذه النسبة - في الحقيقية - قيست مقارنة مع بقية اللغات، وليس مع ألفاظ القرآن الكريم كلها، ما يؤكد- حقيقة- أنه لا يمكن القول عن القرآن الكريم إنه نزل بلغة قريش، أو لغة أي إقليم آخر. فأكثر من 98% من مفردات القرآن الكريم لا تنتمي لأي قبيلة.

واستنادا إلى دراسة قام بها حلمي موسى في كتابه (ألفاظ القرآن الكريم) الذي اعتمد فيه على (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)، والذي أحصى فيه تردّد الجذور – الأسماء، والأفعال – في القرآن الكريم، فقد وجد الأستاذ الحاج صالح أن الأغلبية الساحقة من هذه الجذور هي موجودة في العاميات العربية الحالية،أما غير الموجود منها

فعددها (146) جذرا، من مثل ذر، قسط... غير أن عدد الجذور الموجودة في اللهجات الحالية 1216 جذرا من مجموع 1679، أي بنسبة 72.42%، وهي نسبة عالية جدا.

إن وجود جذور مشتركة بين لغة القرآن، ولغات التخاطب في عصرنا كان دليلا على أن لغة القرآن كانت هي لغة العرب قديما في جميع مستويات التعبير، لأن لغة التخاطب في عصرنا لا يمكن أن يكون أصلها إلا لغة التخاطب القديمة ليس إلا، فهي متفرعة عنها زمانيا وناتجة عن التحول الذي يصيب كل لغات التخاطب عبر الزمان. وقام الأستاذ بإحصاء اللغات التي وردت في كتاب (معاني القرآن) للأخفش، وركّز على المستوى الصرفي والنحوي، وسطّرها في جدول[60].

فوجد أن مجموع اللغات الصرفية، والنحوية (98) لغة من مجموع 6236 آية، وهو عدد ضئيل أيضا، و وجد أن كثرة ما جاء منها من اللغات نسب إلى أهل الحجاز، وأيضا قبائل نجد وتميم، وقد تحقّق هذا كما رأينا من قبل مع المستوى المعجمي، واستنتج بعد ذلك أن ما جاء في القرآن الكريم من اللغات المعجمية، والنحوية، والصرفية كلها قليل جدا بالنسبة إلى مجموع المفردات والصيغ، والأبنية المشتركة، وهذا ينقض ما ذهب إليه المستشرقون من أن لغة القرآن متفرّعة من لهجة قريش أو لهجات نجد[61].

2-إحصاء اللغات في «لسان العرب" وما جاء في كتاب "لهجات الفصحى" من الوحدات اللهجية: اعتمد الأستاذ الحاج صالح على معجم (لسان العرب) لابن منظور، وأيضا المعجم الكامل في لهجات الفصحى لداود سلوم، وأحصى اللغات فيها، وحددها في جدول[62].

ووجد أن المفردات، أو الظواهر اللغوية التي اعتبرت (لغات) في هذه العينة أو أكثرها جاء في حرف العين بنسبة 4%، وأيضا الكتاب الآخر لا يبتعد كثيرا عنه.

فاستنتج استنتاجا هاما، وهو أنه لا يُعقل أن تكون اللغة الأدبية وحدها بهذا الحجم، بالنسبة للعدد الضئيل جدا من العناصر اللهجية.

وأيضا لا يعقل أن تكون لغة التخاطب لجميع العرب هزيلة إلى هذا الحد.

3- توافق البنية التركيبية باطراد بين لغة التخاطب القديمة، ولغة القرآن، ولغة الشعر: وذكر الأستاذ الحاج صالح أن سيبويه قد يستغني عن ذكر الشاهد من كلام العرب، أو من القرآن بذكر مثال أو مثالين، وأعطى لذلك مجموعة أمثلة بالرجوع إلى كتاب سيبويه[63]، فوصل من ذلك كله إلى توافق لغة القرآن، ولغة الشعر ولغة التخاطب[64].

لقد وجدنا من خلال هذا البحث أن هناك بعض الباحثين المعاصرين انتقدوا منهج النحاة القدماء في عدم تفرقتهم بين مستويات اللغة، إذ نظروا لها نظرة واحدة مما سبب هذه الهفوات والشوائب في نحونا العربي، والتي شوهته وعقدته.

إلا أنه هناك من الباحثين المعاصرين ممن يعتبرون أنفسهم منصفين، فقد اجتهدوا ليجدوا مسوغا لمنهج النحاة في عدم التفرقة بين اللغة الأدبية، واللهجات.

لكن الأستاذ الحاج صالح لم ينف ما جاء عند المعاصرين من طرح في ضرورة اتحاد مستوى اللغة في استنباط القواعد النحوية، وأكد أنها لم تكن شاذة في ذلك فقد استنبطت من مستوى واحد لأن اللغة الأدبية،و لغة التخاطب اليومي كانت نفسها، وأن هذا الاختلاف ما هو إلا وهم وقع فيه الباحثون المعاصرون نتيجة تأثرهم ببعض علماء الغرب الذين لاحظوا وجود لغة أدبية،ولهجات محلية في الحالة اللغوية لبلاد اليونان، فقاسوا الحالة اللغوية العربية في زمان الفصاحة على الوضع اللغوي اليوناني.

ورد هذه الشبهة بأدلة تاريخية، وإحصائية على درجة كبيرة من العلمية قادرة على ترسيخ الحقيقة، وإبعاد الشبهة.

هوامش البحث:

(1) في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، دط،دت، ص 38.

(2) المرجع نفسه، ص 38، 39.

(3) نظرية النحو العربي القديم (دراسة تحليلية للتراث اللغوي العربي من منظور علم النفس الإدراكي)، كمال شاهين، دار الفكر العربي، ط1، 2002 م، ص14.

(4) تقويم الفكر النحوي، ص157، 158، نقلا عن نظرية النحو العربي القديم، ص15.

(5) نظرية النحو العربي القديم، ص 15.

(6) النحو العربي، ص 345، نقلا عن نظرية النحو العربي القديم، ص15.

(7) دراسات في علم اللغة، كمال بشر، ص63، نقلا نظرية النحو العربي القديم، ص16.

(8) فصول في فقه اللغة العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط6، 2009 م، ص7.

(9) المرجع نفسه، ص 82.

(10) السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، دط، 2007 م، ص 153.

(11) فصول في فقه اللغة العربية، ص 75.

(12) جاء في الأمالي، واللحن أيضا: اللغة، ذكره الأصمعي، وأبو زيد، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلموا الفرائض، والسنن واللحن، كما تتعلمون القرآن، فاللحن، اللغة، الأمالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، تحقيق صلاح بن فتحي هلل، سيد بن عباس الجليمي، المكتبة العصرية، دط، 2003 م، ج1، ص18.

(13) في اللهجات العربية، ص 15.

[14] المقايسة الدلالية: طريقة تحليلية دلالية بالعودة إلى النصوص وهي طريقة تشخيصية للمعاني، أي استكشافية للمعنى المقصود، وقد تكون برهانية، السماع اللغوي، ص 17.

[15] الكتاب، أبو بشر عمر بن قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للنشر و التوزيع، ط3، 1996 م، 545/3.

[16] الكتاب، 110/4.

[17] الكتاب، 346/4.

[18] الكتاب، 200/4.

[19] الكتاب، 292/3.

[20] الكتاب، 292/3.

[21] الكتاب، 296/3.

[22] السماع اللغوي، ص 155، 156.

[23] المرجع نفسه، ص 162.

[24] البيان والتبيين، ص163/1،162.

[25] السماع اللغوي، ص163.

[26] الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، ط1، 2006 م، ص 324، 325.

[27] السماع اللغوي، ص163.

[28] طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، دار المدني جدة، دط، دت، 11/1.

[29] السماع اللغوي، ص164.

[30] يريد بها مضر، وربيعة.

[31] الخصائص، ص 301.

[32] المرجع نفسه.

[33] المرجع نفسه، ص 164.

[34] القياس في اللغة العربية، محمد حسن عبد العزيز، دار الفكر العربي، ط1، 1995، ص 60.

[35] الأسلوب في الأصل صورة ذهنية تتملأ بها النفس، وتطبع الذوق، وعلى مثال هذه الصورة الذهنية تتألف العبارات الظاهرة التي اعتدنا أن نسميها أسلوبا لأنها دليله. الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط12، 2003م، ص 43.

[36] السماع اللغوي، ص 168، 169.

[37] في اللهجات العربية، ص 39،38.

[38] السماع اللغوي، ص 173.

[39] معاني القرآن، الأخفش،ج1، ص 170.

(40) اضطرب الأخفش في تسميته هذه القبيلة، كما يسجل عليه ذلك في تسمية الكثير من القبائل، فيقول تارة بني الحارث بن كعب، وتارة أخرى بلحارث بن كعب.المرجع نفسه، ص60.

(41) المرجع نفسه، 292/1.

(42) مفهوم الصفاء هو مفهوم محدث ظهر في اللسانيات الغربية ردا على غلو بعضهم في تمسكهم بـ(صفاء اللغة)، وظنوا أن لفظ الفصاحة يدل أيضا على نفس المدلول.السماع اللغوي، ص175.

(43) المرجع نفسه، ص 176- 178.

(44) اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، د.ط، 1996م، ص 59.

(45) فصول في فقه اللغة العربية، ص 96.

(46) السماع اللغوي، ص179.

(47) المرجع نفسه، ص180.

(48) الصاحبي (في فقه اللغة العربية و مسائلها و سنن العرب)، ابن فارس، دار الكتب العلمية، ط1، 1997 م، ص 28.

(49) السماع اللغوي، ص180.

(50) الكتاب، 118/2،117.

(51) الكتاب، 34/2

(52) السماع اللغوي، ص180- 183.

(53)الاستشهاد والاحتجاج باللغة، محمد عيد، عالم الكتب، ط3، 1988 م، ص 250.

(54) الكتاب، 373/3.

(55) المرجع نفسه، 482/4.

(56) المرجع نفسه، 278/3.

(57) لهجات العرب في القرآن الكريم (دراسة استقرائية تحليلية)، عبد الله عبد الناصر جبري، دار الكتب العلمية، ط1، 2007م، ص 85،84.

(58) السماع اللغوي، 184،183.

(59) الخصائص، ص314، 315.

(60) يراجع السماع اللغوي، ص 210.

(61) المرجع نفسه، ص211، 212.

(62) يراجع المرجع نفسه، ص214.

(63) يراجع السماع اللغوي، ص217- 224.

(64) المرجع نفسه، ص 225.

مراجع البحث:

الاستشهاد والاحتجاج باللغة، محمد عيد، عالم الكتب، ط3، 1988 م.

الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط12، 2003م.

الأمالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، تحقيق صلاح بن فتحي هلل، سيد بن عباس الجليمي، المكتبة العصرية، دط، 2003 م.

الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، ط1، 2006 م.

دراسات في علم اللغة، كمال بشر، ص63، نقلا نظرية النحو العربي القديم، ص16.

السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، دط، 2007 م.

الصاحبي (في فقه اللغة العربية و مسائلها و سنن العرب)، ابن فارس، دار الكتب العلمية، ط1، 1997 م.

طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، دار المدني جدة، دط، دت، 11/1.

فصول في فقه اللغة العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط6، 2009 م.

في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، دط،دت.

القياس في اللغة العربية، محمد حسن عبد العزيز، دار الفكر العربي، ط1، 1995.

الكتاب، أبو بشر عمر بن قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للنشر و التوزيع، ط3، 1996 م.

لهجات العرب في القرآن الكريم (دراسة استقرائية تحليلية)، عبد الله عبد الناصر جبري، دار الكتب العلمية، ط1، 2007م.

اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، د.ط، 1996م.

النحو العربي، ص 345، نقلا عن نظرية النحو العربي القديم، ص15.

نظرية النحو العربي القديم(دراسة تحليلية للتراث اللغوي العربي من منظور علم النفس الإدراكي)، كمال شاهين، دار الفكر العربي، ط1، 2002 م.